فاروق وادي

طريق آخر الى البدر

لم تكن القدس غريبة ، ولم اكن غريبا ، لكن عمتي قالت :
ـ « اياك ان تتأخر » .

كتبت لها ، رجوتها ، ارجوك يا عمتي ان تبعثي لي بتصريح زيارة .. اموت اشتياقا اليك واتحرق لرؤيتك .(كنت كاذبا . لم يكن شوقي الا لرؤية البحر).

اضافت بلهجة تنم عن حرص شديد :
ـ « احمل تصريحك معك ، يمكن ان يسألوك » .

* * *

نهارا كاملا ، منسوجا بخيوط عنكبوت ، سلخته امس وانا اقف على الجسر . كانت الحرارة شديدة . تقصف وجهي تحت الاشعة الحارقة وتعب الانتظار . حشرت جسدي بين مئات الاجساد .سبحت في العرق النازف من جلدي وجلد الاخرين . ثمة شوق كان يدفعنا للخلاص من قسوة الدقائق . ملاحقين بالاصوات الرادعة ، كنا نتقدم ببطء .. انتظموا . ارجع يا ابن الكلب . ارجع يا ابن الش .. انتظم .

في غرفة صغيرة ضيقة ، ذات بابين متوازيين ، نفضت جيوبي ووضعت اشيائي على الطاولة ،ثم طلبوا الي ان اخلع كل ملابسي.

كنت اود ان اقول شيئا ،ان ارفض ، لكنني خلعتها . كان وجهي ملطخا بحمرة قانية وانا اقف عاريا ، وتضاءلت عندما رأيت اعضائي الداخلية منكمشة وشديدة الزرقة . تذكرت انني قادم لارى البحر ، فامتلأت شعورا بالعداوة للرغبة التي جذبتني الى الوقوف في النقطة الحمقاء .

فتشوا ثقوب الجسد ، ثم طلبوا الي ان ارتدي ملابسي .لبست، ثم خرجت من الباب الاخر .
« أهلا بكم في اسرائيل » .

وفتاة تبتسم تحت الكلمات ، على غلاف كراسة تناولتها من رجل، في داخلها صور لمدن عرفتها واخرى حلمت بها .

* * *

ـ « لا تذهب وحدك الى القدس اليهودية ، تضيع » .
ـ « اطمئني ، لن اذهب » .

قلت لعمتي ، ثم اندفعت في العروق الداخلية العتيقة للقدس. كانت ما تزال تنبض بظلمتها المهيبة ، وكانت الشمس تسقط على الارض عبر الشقوق الضيقة للطرقات المسقوفة ، وبشيء من الفرح الخفي ، كنت احاول الامساك بحزمة الضوء والغبار الساقطة كالاعمدة النارية ، ثم اعود لانتسم تلك الرائحة الحارة للمدينة .. الرائحة الاليفة ذاتها ،التي افتقدتها منذ اليوم الذي افتقدت فيه الالوان صبغتها .. عندما استيقظت القدس : وكانت الاشياء قد تراجعت الى الوراء مخلفة وراءها جثثا كثيرة ووجوها ذاهلة ـ يومها ، قلت للقدس ابتعدي .. اخرجي من جلدك واهربي .. كنت بلا صوت ..ضاع صوتي في ضجيج النحاس وصخب الاحذية الثقيلة .

لكن القدس ظلت واقفة في ذات المكان ، وابتعدت انا .
منحت وجهي للشرق ، خاسرا حلما تيقظ فيّ كطفل جائع .كنت احلم باللحظة المنتظرة واقول انها جاءت ، وانني اخيرا ، سوف ارى البحر .

* * *

اجتاز الشوارع ، اعبر الطرقات ، فيغمرني الاحساس بالالفة مع الاشياء . لم تكن القدس غريبة ، ولم اكن غريبا ، لكن شيئا ما، غامضا ، كالحزن السري ، كان ينتشر في الافق ويعبر جلدي ، فينكمش جسدي ، يتجمع ، وافتقد يدا منداة تمسح ذلك الشيء عن وجه المدينة .

لم تكن رائحة القدس غريبة ، وكل شيء لم يكن الا كما تركته ، لكن الشيء الذي اجهله ، المنتشر في افق المدينة ، كان كالماء والرماد، يهبط في جسدي ، يأخذ مساره في الدم والعروق ، ويسرق من وجه القدس بهجة الاحتفال .

* * *

اتوقف عند بوابة البحر . كنت اسميها بوابة البحر .

وكنت طفلا كثير التساؤل :

ـ « من أين الطريق الى البحر ؟ » .

فيقولـون :

ـ « من باب الخليل » .

اذن ،هي بوابة البحر . وانتشي بلذة الاكتشاف .اركض والاطفال، تلعب في الساحة المنتشرة امام الباب . باب الخليل كان مقفلا ، ثقيلا، وصدئا ، ،رصعا بمسامير كثيرة وكبيرة ، والى جانبه كان يقف الشرطي ذو الخوذة المدببة، ، يزجرنا في لحظة الاقتراب . نجلس متعبين ،نضع الكرة الى جانبنا . نعطي ظهرنـا لحائط قديم ، ونقدم عيوننـا للبوابـة المقفلة وللسور الذي يزنر وسط المدينة . نرسم في خيالاتنا طريقـا طويلا ورحبا ، يمتد من خلف الباب ليصل الى شاطىء البحر . ننحت اشكـالا رهيبة للوجوه التي تسرق البحر .

ـ « امي ، كيف هم اليهود ؟» .

ـ « ناس .. مثلنـا » .

لم اصدق . شيء ما في داخل الطفل لم يكن يصدق .

« ـ ولماذا عندهم البحر . هل البحر لا يتسع للجميع ؟ ».

تقف واجمة ، عاجزة عن التوصل الى اجابة .

اجلس والاطفال ، نراقب الشرطي طويلا . عندما رايته يغيب، قذفت الكرة ورائي . التقطها صديقي وخلته يلاحقني بعينيه .وباندفاع الرغبة الحادة ، ركضت نحـو الباب . بحثت عن ثقب في الباب ، او ثغرة في الحائط الحجري العتيق ، لكنني عدت بعد قليل الى الاصدقاء ووجهي رايـة منكسة . لو وجدت ثقبا صغيرا لرميت عيوني من خلاله ورايتهم .. ولرايت الطريق الى البحر .

ـ « ناس .. ،مثلنا » .

قالت امي عندمـا سألتها مرة اخرى ، ولم اشا ان اصدق .لكنها ايضـا ظلت صامتة عندما قلت لها :

ـ « اليس البحر كبيرا ويتسع للجميع ؟ » .

★★★

فيض الوجوه الغريبة يتدفق عبر البوابة زاحفـا الى الجـزء الشرقـي .

وقفت . الحنين الى البحر يجذبني ، والوجوه التي تقت لرؤيتها برغبة الطفل في داخلي تملأ الساحة ، وما زالت ، موجا عارمـا يتدفق عبر البوابة ، ويرتطم بصخرة القلب .

فكرت بالتراجع ، لكـن الحنين الى البحر شدني للعبور .

كنت ادخل البوابة عابرا الى الضفة الاخرى من المدينة ، تجرني خطوات مسكونة بالتردد والحيرة . وبنظرة مطوّفة ، احتويت المكان، فكنت ارى هذه القدس للمرة الاولى .

نثرت خطواتي على طريق يمتد امامي . سرت طويـلا ، ومرات عديدة ، تحسست تصريـح الزيارة .

توقفت .

لم يكن الطريق الذي مشيته يحمل ملامح طريق البحرالذي رسمته في ذاكرتـي من قبـل .

وكان المساء يهبط .

بدا سقف السماء منخفضا ، يهبط هو الاخر مع المساء ، علـى صدري . تذكرت وقفتي عاريـا في النقطـة الحمقاء ، فازداد احساسي بالمهانة ، وخطـر ببالـي في تلك اللحظـة ان طريق البحر لا يمكـن ان يبدأ من تلـك النقطـة .

كانت خطواتي قد بدات تخلف وراءها شواظا ناريـا بلون الشفق، وانـا اعبـر البوابة عائدا الى القدس الشرقية .

لم تكـن القدس غريبة ، ولم اكـن غريبا ، لكنني كنت حريصا على حمل تصريح الزيارة .

قالت عمتي وهي تستقبلني على عتبة البيت :

ـ « هل رأيت القدس تغيرت ؟» .

لم اجب ، وكنت ما ازال افكر في الطريق الاخر .. المؤدي الى البحـر .

بيـروت

دار الطليعة تقـدم قريبا

الموسوعـة الفلسفية

وضع لجنة من العلماء والاكاديميين السوفياتيين

بـاشراف

م. روزنتال ب. يودين

ترجمة سمير كرم

مراجعة د. صادق جلال العظم جورج طرابيشي

تضم الموسوعة الفي مصطلح في الفروع الآتية :
الفلسفة ـ تاريخ الفلسفة والمـدارس الفلسفية (بما فيها الاغريقية والاسلامية والصينية والهنـدية والمسيحية والفلسفة الحديثة والمعاصرة بكل اتجاهاتها) ـ علم النفس ـ علم الاجتماع ـ المنطق (الشكـلي والرمزي والجبري والجـدلي) ـ اعلام الفلسفة ـ الاقتصاد السياسي ـ علم الجمال وفلسفة الفن ـ النظريات الذرية الحديثة ـ تلخيصات مركزة لاهـم الكتب الماركسية الكلاسيكية .
انه اول قاموس فلسفي وايديولوجي مـاركسي يصدر بالعربية .